الرسالة وإصلاح الأزهر

للأستاذ محمد رجب البيومي

كتبت بالعدد الممتاز الماضى كلمة موجزة عن أثر الرسالة — مدى سنواتها العشرين — فى العالم العربى أدبيا واجتماعيا ودينيا ، وكان من الحتم الأكيد حينذاك أن أوضح ما قامت به من جهود فى إصلاح الأزهر ، فهو معقل الإسلام ، ومنارة الأدب ، وموئل العروبة ، غير أنى أردت أن أفرد لذلك مقالا خاصا ، إذ أن الحديث عن هذا الموضوع المتشعب يحتاج إلى بعض التفصيل

والحق أن الرسالة وقد أنشأها صاحبها لإيقاظ الوعى الأدبى ، وبعث الروح الإسلامى ، وإحياء المجد العربى ، كانت ترى الأزهر حقلا خصيبا لتنمية ما ترمى إليه من غايات ، فهو أفسح ميدان لتربية الشباب المسلم ، المعتز بأروومته العريقة ، وتقاليده الكريمة ، ودينه الأصيل ، وهو عدو الاحتلال الجاثم على ربوع الشرق الإسلامى ، يناوئه بسلاح الدين ، ويهدمه بمعاول الأدب ، ويفزعه بمنطق الثقافة ، ويزعجه بإذكاء الحمية والغيرة والإباء فى النفوس ، فلابد لمصلحين أن يساهموا فى بنائه الراسخ ، ليستكمل أداة التعليم ، ويساير حاجة العصر ، وإذ ذاك ينهض بالشرق — كما يقول الاستاذ الزيات — نهضة أصيلة حرة تنشأ من قراه ، وتقوم على مراياه ، وتتغلل فى أصوله !

وهناك صلة قوية ثابتة بين الرسالة والأزهر ، فالرسالة وهى فى جوهرها صحيفة الأدب العربى الأصيل ، ترى « أن الدين الإسلامى ينفرد عن سائر الأديان باعتماد دعوته على الأدب ، وقيام معجزته على البلاغة ، والدين الإسلامى والأدب العربى متلازمان تلازم المعنى واللفظ والفكر والأداء ، ولا يتسنى لرجل الهداية والإصلاح أن يبلغ دعوة محمد ، إلا إذا تمكن منهما تمكن الجاحظ ومحمد عبده وغيرهما من أئمة الأدب والدين [1] » وإذا كان الأزهر قائد الدعوة إلى الإسلام فهو يلتقى بالرسالة فى حلقة الدرس وميدان الجهاد

وأنت تتصفح أعداد الرسالة فى سنواتها العشرين فلا تكاد تجد سنة تمر دون أن تثار على صفحاتها معركة الأزهر والإصلاح . ولو أن باحثا عكف على دراسة هذه البحوث الخاصة بالأزهر ، لأمكنه أن يقدم — على ضوئها البصير — لولاة الأمر فى مصر ، دستورا دقيقا للاصلاح الأزهرى المأمول ، قد اشتركت فى تقنينه عقول ممتازة ، وأقلام حرة جريئة . والرسالة بعد أحفل الصحف الأدبية فى الشرق آثار أدباء الأزهر وشعرائه ، ولا يخلو عدد من أعدادها التى تربو على الألف رغم تنوع مشاربها ، واختلاف مناحيها ، من أقلام أزهرية تعالج شؤون الأدب والدين والتاريخ ، مما يشهد بأثرها الواضح فى تنشيط العقل الأزهرى وتوجيهه

وإذا كانت آراء الكتاب قد اختلفت قربا وبعدا فى توجيه الإصلاح الأزهرى على صفحات الرسالة ، فإن صاحبها الكبير قد وضع للمشكلة الأزهرية حلولا مختلفة ، أخذت تتبلور وتتضح ، حتى اجتمعت أخيرا فى حل حاسم جهر به ودعا إليه ، وكان لحلوله المختلفة — فى سنواتها المتفرقة — صداها القوى المجلجل ، فقد تناولها الكتاب بالنقد والتعليق ، ودفعت كثيرا من الأقلام إلى المعارضة والتأييد ، وستعرض اليوم موجزا دقيقا لهذه الحلول ، ليلم بها القارئ فى أضيق نطاق ، وله أن يرجع إلى أعداد الرسالة السابقة إن أراد الإسهاب والتفصيل

لقد بدأ الأستاذ الزيات تجديد رسالة الأزهر ، ووجهها إلى ثلاثة مناح [2]

(١) الرسالة ٢٢ إبريل سنة ١٩٤٠ للأستاذ الزيات

(٢) الرسالة ٢٧ مارس سنة ١٩٣٩

(١) تنقية الإسلام من العقائد الواغلة ، والمذاهب الباطلة ، والعادات الدخيلة ، وسبيل ذلك ما يأتى :

(ا) تفسير القرآن على هدى الرواية الصحيحة ، وفى ضوء العلم الصحيح ، تفسيرا يجمع ماصح من أقوال السلف وماصلح من أقوال الخلف

(ب) تأليف كتاب يجمع ما لاريب فيه من أحاديث الرسول ، ويستعان على شرحه وتبويبه بعلوم التاريخ والفلسفة والاجتماع

(ج) تصنيف كتاب شامل للمذاهب الفقهية الصحيحة ، فيوضع متنه مواد كالقانون ، ثم يشرح شرحا يستوعب الأصول والفروع (على أن تكون هذه الكتب الثلاثة مادة الدراسة ، ومصدر الفتوى ، ومرجع القضاء)

(٢) إعداد الوعاظ والدعاة فى الشرق الإسلامى من أهل اللسن والخلق والعلم وسبيل ذلك ما يأتى :

(ا) إمدادهم بالثقافة الحديثة واللغات الحية فوق التكوين الأزهرى

(ب) إيفادهم إلى الأمم الإسلامية البعيدة عن مواطن العروبة ومهبط الوحى

(ج) العناية اليقظة بالبعثات الإسلامية فى الأزهر ، فأصحابها أقدر على إرشاد قومهم باللغة والقدوة والنفوذ

(٣) جعل اللغة العربية لغة المسلمين كافة ، فيكون لكل مسلم فى الأرض لغتان ، لغة لوطنه الأصغر ، ولغة لوطنه الأكبر . وسبيل ذلك :

(ا) أن تحمل مشيخة الأزهر أقطاب الرأى فى البلاد الإسلامية بالمفاوضة والائتمار على أن يجعلوا تعلم اللغة العربية إجباريا فى مراحل التعليم المختلفة (ب) أن تتكفل بإرسال المعلمين من المتخصصين بالأزهر ليضطلعوا بهذه الرسالة

هذه هى رسالة الأزهر كما حددها الأستاذ الزيات ، وقد كان المظنون أن هذه الجامعة العريقة ستسعى إلى تحقيقها ، لتتم لها الهيمنة الروحية على العالم الإسلامى ، وخاصة أن الأستاذ المراغى كان يتقلد مشيخة الأزهر ، وفى وسعه أن يرتفع به إلى الأوج ، لو خلصت النية ، وصحت العزمة ، فقد عقد الشباب الأزهرى على جهوده المرتقبة ، آمالا واسعة عريضة ، واندفع الشباب والشيوخ — إلا قليلا — يؤيد حركة البعث فى الصحف والمجلات ، وقد رأى الأستاذ الزيات أن الفرصة مواتية لحركة الإصلاح ففسح لها فى صحيفته مكانا طيبا ، واندفع مرة أخرى يحلل ، ويعلل ، ويمهد أسباب الوثوب والتقدم والاستقرار ، وقد لخص علاجه فى أمرين اثنين ينهضان بالأزهر الحديث ، وينقذانه مما يتكاءده من التقاليد البالية ، والجمود الميت ، هذان الأمران هما : إعداد العلم وتأليف الكتاب

والعلم كما يقول صاحب الرسالة [٣] لا بد أن يكون متمكنا فى علوم الدين وصاحب ملكة فى الفقه ، وأن يكون متبحرا فى فنون العربية ، وصاحب قريحة فى الأدب ، وأن يأخذ بعد هذا وهذا من ثقافة الغرب بأوفر نصيب . أما الكتاب فلا يتيسر إلا بعد إعداد العلم ، لأنه هو وحده الذى يدرى كيف يؤلفه ويدرسه « ومتى توفر للأزهر العلم والكتاب فى ظل هذه الإدارة البصيرة ، صح لك أن تقول إن مصر ظفرت بجامعتها الصحيحة التى تدخل المدنية الغربية فى الإسلام ، وتجلو الحضارة الشرقية للغرب ، وتصفى الدين من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة »

ثم مضت الأيام خلف الأيام !! والأزهر على حالته الراهنة لا يأخذ بإصلاح ولا ينهض إلى رسالة . ومن الإنصاف للتاريخ أن نقول إن الأستاذ المراغى قد نحى بالأزهر فى هذه الآونة ناحية عصفت بآماله ، وبددت شمله ، فقد اندفع به التيار الحزبى البغيض لينصر فريقا على فريق ! ولم يلتفت إلى إصلاحه وتوجيهه ، بعد أن عقدت عليه الآمال ، وامتدت إليه الأعناق ! وأصبح الشباب الأزهرى المتوثب إلى الرقى والنهضة حائرا لا يجد من يأخذ بناصره ،

(٣) الرسالة ٢٢ إبريل سنة ١٩٤٠

ويتولى زمام أمره ، سوى أفراد من رجاله لا يملكون غير الخطب والمقالات ، بل إنه وجد من يفت فى عضده ويثبط همته ، « من شيوخ غاية أمرهم أن يتزيوا بالورع[٤] ويتفقهوا فى العلوم ، بتشقيق الجمل ، وتوليد الألفاظ ، وتعديد الفروض » وما زال الفساد السياسى من جهة ، والعصبية المهدية بين الأزهر والجامعة من جهة أخرى ينهشان فى فى هذا المعهد النليد ، ويفرقان أبناء الثقافة الواحدة شيعا وأحزابا ، حتى تأكد المفكرون أن الأزهر لا يستطيع أن يصلح نفسه بنفسه ، وأنه محتاج إلى خلق جديد ، وسيطرة خارجية ، ترفعه عن النزوات الشخصية ، والإسفاف الحزبى ، وتعود به إلى حظيرة الدرس والفضيلة والتثقيف ، لذلك قام الأستاذ الزيات بدعوة جريئة إلى إصلاح الأزهر ، فتقدم على صفحات الرسالة[٥] باقتراح حاسم يتضمن ما يلى :

١ — أن يلغى التعليم الابتدائى من جميع المعاهد الدينية ، ليلقى بمقاليده إلى وزارة المعارف فتقسمه على الوجه الذى تراه ، وذلك بدء الوحدة الثقافية

٢ — أن تتحول المعاهد الثانوية الدينية إلى مدارس ثانوية لحاملى الشهادات الابتدائية العامة ، وتعلم فيها الرياضيات والعلوم وفق منهج الوزارة ، وفى أول السنة الثالثة يتجه طلابها اتجاهين مختلفين : إما إلى الدين وعلومه ، أو إلى اللغة وفنونها ، فإذا انقضت السنوات الخمس تقدم طلاب الشعبتين إلى امتحان الشهادة الثانوية مع سائر إخوانهم فى جميع المدارس ، يمتحنون معهم فيما يتفقون فيه ، وينفردون انفراد شعب التوجيهية فيما اختصوا به

٣ — أن يقتصر فى التعليم الجامعى بالأزهر على كليتين اثنتين : كلية الدين وتشتمل كليتى الشريعة والأصول ، وكلية اللغة وتشمل كلية اللغة العربية ودار العلوم

وقد أثار هذا الاقتراح جدلا كبيرا بين الأقلام مابين مؤيد ومعارض ، وقد هاجمه من كبار رجال الأزهر المغفور له الأستاذ الخضراوى بمجلة الرسالة[٦] مهاجمة خطابية عاطفية ، كما عارضه الأستاذ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر الآن بمجلة رسالة الإسلام[٧] معارضة تقوم على الرفض والإنكار ، دون أن تحلل البواعث الخافية ، والأسباب المقنعة . وأدلى غيرهما كالأستاذ العقاد[٨] والشيخ الدقى[٩] بآراء تتفق وتختلف ، وتلين وتشتد . وتتلخص اعتراضات المعارضين فى شبه يسيرة أوجد لها الأستاذ الزيات ما يلزم من الحلول والتفنيد

فهناك من يقول إن المواد المدنية على نهجها المعروف بمدارس الوزارة ستطغى على المواد الدينية . وهناك ثان يقول إن تحفيظ القرآن الكريم لا يمكن أن يتم على وجهه الأكمل ، إذا كان القسم الابتدائى عاما للجميع . وهناك ثالث يقول إن هذا الاقتراح سيحرم الطالب ست سنوات كان يقضيها فى دراسة اللغة والدين . ورابع يرى أن الاعتماد على الشهادة الابتدائية العامة ، فى تغذية الأقسام الثانوية الأزهرية ، يعرضها للهزال والجدب ، لانصراف التلاميذ عنها إلى المدارس الأخرى !!

هذه هى الاعتراضات الموجهة إلى الاقتراح . وقد أجاب عنها الأستاذ الزيات إجابة شافية بالرسالة[١٠] ، فبين أولا أنه لا خوف من طغيان المواد المدنية على غيرها ما دام الوقت مقسما ، والأستاذ كفؤا ، والكتاب مهذبا . وبين ثانيا أن القرآن الكريم يمكن أن يحفظ بسهولة إذا فرضته إدارة الأزهر على كل طالب فى كل سنة من سنى الدراسة فى المدارس الأزهرية الثانوية . وأوضح ثالثا أن المعاهد الدينية التى ستصير مدارس ثانوية ستظل

(٤) الرسالة أول إبريل سنة ١٩٤٠

(٥) الرسالة ٨ إبريل سنة ١٩٤٦

(٦) الرسالة ٦ مايو سنة ١٩٤٦ وما بعدها

(٧) رسالة الاسلام السنة الثانية العدد الرابع أكتوبر سنة ١٩٥٠

(٨) الرسالة ١٥ إبريل سنة ١٩٤٦

(٩) الرسالة ٢٩ إبريل سنة ١٩٤٦ وما بعدها

(١٠) الرسالة ٦ مايو سنة ١٩٤٦ م

تابعة للأزهر ، خاضعة لإدارته ، فله أن يفرض عليها ماشاء من الدراسات الدينيـة . كما بين أخيرا أن الاقتراح يقصر وظائف تدريس اللغـة العربيـة والدين والأدب فى جميع مدارس الأمة على الأزهر ، فكل من يرغب فى ممارسة أمر من هـذه الأمور يجب أن يدخل الأقسام الثانوية الأزهرية ، ليحقق رغبته ؛ ولن يتعرض بعد ذلك للهزال والجدب .

وإذا كان صاحب الرساله قد تقدم باقتراحه منذ سبع سنوات قبل أن تعم المجانية التعليم الثانوى بالمدارس ، فإننا نرى أن الواقع الملموس بعد تعميم المجانية يدعو معارضى الاقتراح إلى النظر فيه من جديد نظرة عملية ، إذ أن الأزهر بمجانية التعليم قد تعرض إلى زلزلة عنيفة صرفت عنه كثيرا من الطلاب ، وأصبح يتسامح فى شروط الانتساب تسامحا جعله لا يدقق فى حفظ القرآن بجميعه ، بله السن والقواعد الأولية للمعلومات . ولئن وجد فى العامين الماضيين من توجه إليه ممن استعدوا لدخوله منذ طفولتهم الباكرة ، فإنه لن يجد بعد ذلك من يسارع إليه ، إلا إذا منح ميزات كثيرة تبرر تفضيله على المدارس فى نظر أولياء الأمور ، وهيهات أن يكون ذاك ، وهو بوضعه الراهن بعيد كل البعد عن الثقافة الحديثة ، واللغات الحيـة ، التى تفتح أبواب المستقبل ونوافذ الأمل للشباب

على أن كثيرا من أساتذة الأزهر ورجاله يشاركون الزيات رأيه بكل قوة وتعضيد . وأذكر أن الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى قد كتب مقالا حارا بالأهرام (صيف سنة ١٩٥٠) يقترح فيه ما سبـق أن اقترحته الرسالة بشأن الأزهر ، ففتح مجالا كبيرا للمناقشة وتلقت جريدة الأهرام سيلا من التأييد والمعارضة يوحى بالاهتمام والتقدير ، بل إن الدكتور محمـد يوسف موسى قد أعلن رأيه هذا فى مجلة الأزهر[١١] ، وهى الصحيفة الرسميـة للأزهريين ، فلم يثر اعتراض الشيوخ آنذاك ، أما خارج الأزهر فأكثر رجال التربية والتعليم يضجون من الثنائية الحمقاء ، التى تبدد وحدة الثقافة بين أبناء الأمة الواحدة . وقد دعا وزير المعارف الأستاذ إسماعيل محمود القبانى فى كتابه الذى أصدره أخيرا عن سياسة التعليم إلى توحيد الثقافة ، وتحويل المعاهد الأزهرية إلى مدارس ابتدائيـة وثانوية ، لتتم الوحدة الثقافية فى وادى النيل ، وأنا أرى أن السبيل ميسر إلى ذلك كل التيسير ، إذ أن مدرسى اللغة العربية والدين — وهم أكثرية — فى مدارس الوزارة من الأزهريين ، كما أن مدرسى المواد المدنية فى المعاهد الدينية من رجال التعليم بالوزارة ، فلم يبق إلا أن تتحـد البرامج وتتفق المناهج . وإذا كانت عناية المدارس الآن باللغة العربية والدين الإسلامى واهنة ضعيفة ، فلنشد أزرها شدا قويا متواصلا ، ليكون جميع التلاميذ مثقفين فى دينهم ولغتهم دون تمييز بين فريق وفريق

وأخيرا .. هل من سميع ؟!

محمد رجب البيومى

(١١) مجلة الأزهر : المحرم سنة ١٣٧٠ هـ

الانسان بين المادية والإسلام

للأستاذ محمد قطب

أول بحث علمى يتناول الموازنة بين نظريات الماديين عن الإنسان ونظريات الإسلام من الناحية العلمية

يقع فى ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير

الثمن أربعون قرشا

يطلب من الناشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه ومن المكتبات